بنت جبيل

١٩٣٦

الإنتفاضة والاقطاع

عباس بزي

منذ فترة غير طويلة وقفت قرية عيترون في فضاء بنت جبيل وقفة تمردفي وجه الريجي وزبانية السلطة . ولما لم يتح لهذه الوقفة قيادة تستخرج منها كل ما كان مضمرا في باطنها ، وساد ذيولها ((التباس)) توسيط الاقطاع والتودد للسلطة ، حق لعيترون ان تقول ما قاله الثور الاسود : الا اني اكلت يوم أكل الثور الابيض)) . وبما ان الجنوب يقف كله اليوم على مفترق ، لا بد من مراجعة تاريخ انتفاضة وقعت في بنت جبيل (١) عام ١٩٣٦ حتى لا يظل اختيار السبيل السوي رهنا بسياسة يعميها التخلف ويدفعها حلفاء السوء الى المصير الذي لاقاه رجال انتفاضة ١٩٣٦ في بنت جبيل .

جفت البركة الكبيرة في بنت جبيل وامتلأت بماء المطر ثلاثا وثلاثين مرة منذ عام ١٩٣٦ . والمعركة المقبلة على البلدة وجوارها ، ستلبس ، اذا اقبلت ، حلة اخرى وسيكون هذا حسنا . لذا فان فتح الدفتر العتيق لا يريد الكشف عن درس يحفظ او عظة تلقى . والدفتر العتيق اينما كان يحتوي كل شيء الا الدروس والعظات . وهو ــ التاريخ ــ حينما يتكلف الوعظ فانما يكلف نفسه شططا ويدخل في ما لا يعنيه ولا يصلح له . ذلك ان التاريخ هو مكان التغير لامكان الاستعادة . والبركة الكبيرة ــ على ركودها ــ لا تمتلىء مرتين بالقطرات نفسها . كما انك ــ في ما راى الاغريقي القديم ــ لن تنزل ابدا الى النهر ذاته مرتين . بيد ان لهذه الحقيقة وجها

١ ــ بلدة ريفية في جبل عامل ، لبنان الجنوبي .

اخر رغم كل شيء . فرعيل ١٩٣٦ ما زال الكثيرون من ابنائه احياء ،اكثرهم، اذا نظروا الى انفسهم لا يستغربون كثيرا . والاهم من هذا ان ابناءهم يشبهونهم شبها قريبا . يشبهون الصورة التي نعرفها لهم عام ١٩٣٦ . والابناء هؤلاء هم الذين سوف يواجهون الاحداث القادمة . لذا يبدو خطرا ان تقوم بينهم صلات قريبة من تلك التي كانت قائمة بين الاباء وان ينظروا الى انفسهم في مرآة الرعيل الاول .

هذا الرعيل الاول يميزه ، هو الاخر ، انه كان ينظر الى نفسه في مرآة خصومه وان كان يرجو ، في آن معا ، ان تخدعه المرآة وان تسفر له عن وجه مختلف . فهو يدرك ، مثلا ،ان الاقطاع العائلي حليف المستعمر ، لكنه لا يضع لنفسه قاعدة سلوك تبني له مستقبلا آخر غير مستقبل هذا الاقطاع. وهو لا ينعم النظر في أصول هذا الاقطاع ولا في اصوله هو نفسه . لا في ما يجمع بين فصائله هو على معاداة المستعمر الفرنسي ولا في ما يقسم فصائل الاقطاع حول هذه المعاداة . هكذا نراه – رعيل ١٩٣٦ – « يصادق من يصادقه ويعادي من يعاديه » ،وفق « الحكمة » التي عادت فعرفت مزيدا من الشهرة في العقدين الاخيرين وهي « حكمة » تجمل في كلام قليل اقصى احوال التخلف السياسي . هذا الاسلوب ، في الفكر والعمل او –بعبارة ادق– في غياب الفكر عن العمل ،هو الذي ترك انتفاضة ١٩٣٦ فريسة المفاجآت واتاح لاصحابها الا يجاوزوا حافة المنطق الذي كانت حركتهم تحمله بين ثناياها . فكان ان ازاحوا خصومهم ،بعد زمن ، ليحتلوا ارائكهم . واذا كانت الوجوه التي اشرقت على بنت جبيل ولم تغب بعد منذ ذلك الحين مختلفة بعض الاختلاف عن الشموس الغاربة من آل قاسم، فمرد الاختلاف الى ان التاريخ مشى خطوة بعد الحدث ...الى ان الحدث وان ابتلعته البلدة الهادئة ، فهي لا تقدر على التخلص منه مرة واحدة ، بل تظل تحمله – وتحمل معه ما تلاه من تغييرات شتى – في شرايينها ، وان بدا وكأنه لم يبق منه الا حكاية تحكى .

بعد هذا ، يتضح قليلا بعض الكلام العام الذي يجوز ، منذ الان ، ان يقال حول المعركة المقبلة .. اذا اقبلت . هذا الكلام يتناول خاصة قضية الاحلاف ودرجاتها ومستقبل العلاقات بين القوى المتحالفة .

نعني ان مسألة القيادة ستكون لها اهميتها في العمل المقبل وان الفئة القائدة سيكون عليها ان تعي اصول العلاقة بين الفئات التي تقودها والمدى الذي يمكن ان تصل اليه كل فئة في العمل انطلاقا من مصلحتها ومستوى وعيها، هذه هي العظة الكبرى التي تستخرج من انتفاضة ١٩٣٦،لبنت جبيل واسواها ولنطاق اوسع كثيرا من نطاق بلدة واحدة . وهي ، كما نرى، عظة تافهة لفرط وضوحها ، الا انها حاسمة ..

اذا ، نكون في النهاية ـ او في البداية ـ قد استخلصنا عظة من التاريخ بعدما قلناه حول التاريخ والعظات . ونحن لا نرى في ذلك تناقضا ، الا ظاهرا . فان هناك عينا ترقب التاريخ خلف عين المؤرخ وهي التي حاولنا ان نستعيرها قليلا في هذه السطور الاولى ، وان السراب الذي يفر هذه العين غالبا وهي تحاول ادراكه هو ما يدعوه احدهم « سرعة التاريخ » . واهمية هذه السرعة هي انها تحدد مدى الجدة في الوضع الجديد وحظ الحركة في تاليف عناصره ، بحيث يتيح لنا ادراكها ان ندرك مستقبل هذا الوضع وان نعين اشكال السلوك التي يقتضيها دون وقوع في الوهم او في التسرع . لكن العين التي ذكرنا ،هي بعيدة اشد البعد عن التنزيه وهي تخطىء العظة ،في معظم الاحوال ، لصعوبة الموازنة بين السكون والحركة . على انه لما كان وعي الناس لتاريخهم يتكون في جملته من مثل هذه الموازنة ، فانه لا غنى لهم عن اعادة المحاولة كرة بعد كرة . وما هذه السطور الا موازنة من القبيل نفسه اتخذت مادة لها حدثا صغيرا من ماضي بلدة صغيرة .

***

لم يكن وجه بنت جبيل العائلي ، عشية الانتفاضة ، يختلف كثيرا عما هو عليه اليوم . العائلتان الرئيسيتان ، بزي وبيضون كانتا في الساحة تستقطبان من حولهما ، بفعل التجاور في حي واحد غالبا او بفعل القرابة والتقاء المصالح احيانا منظومتين متواجهتين من العائلات الصغيرة . غير ان القسمة العائلية كانت لا تزال اقرب الى اصولها . فآل بزي ، يليهم في ذلك آل شامي وآل شرارة ، وهم حلفاء لهم ، اصحاب الارض ، لا في بنت جبيل وحدها ، بل في قرى مجاورة ايضا منها بيت ليف وحداثا ومارون وفي قريتين فلسطينيتين هما قدس والمالكية . اما آل بيضون فكانوا موزعين بين العمل الحرفي ـ صنع الاحذية ، خاصة ـ يمارسه فقراء الحال منهم ، وبين تجارة الاسمان والمواشي والخيول ، يمارسها ميسوروهم ، بين سوريا وفلسطين واحيانا العراق . وكانوا يلفون حولهم عائلات صغيرة ، تتعاطى اعمالا مشابهة : آل صعب وهم باعة صفار ، آل طرفة وهم اصحاب مواشي ورعاة ، آل حمقة ، وهم قصابون الخ . . ذلك ان آل بيضون عائلة طارئة على البلدة ، لم تتح لها حداثتها النسبية فيها ان تصبح عائلة مالكة . اما آل بزي فهم عائلة مكثت في البلدة منذ قرون واستولت على الارض فيها . يدل على هذا توزيع الحيين الكبيرين في البلدة . فالجامع ،في حي آل بزي ، ـ وهو اقدم جوامع البلدة ـ يشرف على ساحة تسمى « حاكورة نصف الضيعة » امست اليوم في الطرف الجنوبي الشرقي من البلدة ، والجبانة ـ التي كانت ، كما هي العادة ، في ظاهر البلدة ـ امست اليوم فاصلا بين الحيين ، تجاورها

الحوارة ، وهي مخزن مياه ردم حديثا تقضي العادة ايضا الا يكون بين البيوت . كذلك توحي ازقة الحي الذي يعمره آل بزي ونمط البناء فيه بانه هو الحي القديم . ويذكر المسنون ان بيت محمد الحاج مرعي بيضون ، كان لنصف قرن خلا ،ـ وهو مجاور للجبانة ـ آخر بيوت البلدة من جهة الشمال الغربي وكان تجاوزه ليلا مجابهة المخوف،بينما امسى ثلث البلدة تقريبا، يقع ، في أيامنا ، بعد هذا البيت ، من جهتي الغرب والشمال . ثم ان المنطقة التجارية ـ وهي اليوم قلب البلدة وقد انتقلت ، في معظمها ، مما يسمى « بالساحة » الى ما يسمى « بالسوق »ـ كانت، هي الاخرى ، خارج البلدة القديمة ، اذ لم يكن ثمة مجال للاتجار بالمواشي وعرض البضاعة في الازقة الضيقة بين البيوت المتلاصقة .

زقاق واحد طويل ، تتفرع منه ازقة اقل شأنا ، يقع بيت محمد الحاج مرعي في أعلاه وتقع الساحة في أدناه ، يبدو في اول الحي الجديد جزءا من البلدة القديمة ، بشكله وطراز بيوته . هذا الزقاق يرجح لدينا ان آل بيضون حلوا فيه ، عند قدومهم ، وما زال قسم منه يسمى بـ « زاقوق بيت مرعي » ـ هم فخذ من آل بيضون ـ رغم ان معظم سكانه الان ليسوا منهم بل من العائلات التي تواليهم . ولا نعرف ، في أرض بنت جبيل ،ملكا قديما ثابتا لآل بيضون سوى التلة المشرفة على البلدة ، من ناحية الغرب وتسمى بالقلاع . ولعل القادمين الجدد ، لم يلقوا صعوبة في استملاك هذه التلة التي يملك قسما منها الان آل صعب وآل مكي ، وهم من حلفائهم ، لانها اوعر الاراضي في بنت جبيل واقلها صلاحا للزرع ، ففرسوها ، في معظمها تينا وكروما . حتى الاراضي التي يقع عليها الحي الجديد وتمتد الى شرقه وشماله ، كان آل بيضون لا يملكون منها ، الى وقت قريب ، الا الجزء اليسير ، بينما يخص الباقي آل شامي وآل جمعة وآخرين .

هكذا يمسي اصل الصراع امرا ممكن التصور ، وان صعب التاريخ الدقيق له . فالطارئون استطاعوا ان يثبتوا اقدامهم في البلدة وان يوسعوا اسواقها امام تجارتهم ونتاج حرفهم ، في حين لم تكن فيه ملكية الارض ، تعني شيئا كثيرا ، بل كانت ، في احوال كثيرة ، عبئا على أصحابها .. حتى انه يحكى ان الحاج محمد بزي قدم قرية كونين التي كان يملكها هدية الى موظف تركي استضافه ، واستعاض عنها بمصحف قدمه له الموظف المذكور الذي ما لبث ان باع القرية الى آل الاسعد ، وقد ظلت في حوزتهم الى عهد غير بعيد . فلا يستغرب والحالة هذه ان يدخل القادمون الجدد في نزاع على النفوذ مع اصحاب البلدة الاصليين ، بعد ان وجدوا في المنطقة مجالا يستوعب سلعهم وخدماتهم . وقد اكسبهم وضعهم كأقلية طارئة نزقا في

الطبع وميلا الى الشجـــــار ما زالوا يعرفون بهما الى اليـــوم ، دون كبير استحقاق . اما آل بزي فقد تهافتت مكانة الملاكين من بينهم ، مع تضاؤل قيمة الارض ، في أواخر العهد العثماني ، حتى آلت زعامتهم الى فخذ منهم لم يكن في عداده ملاكون كبار • فتسلم مقادير العائلة ، معتمدا في حمايـة مكانتها على ارهاب الآخرين بقوة رجاله التي تعاظمت لانه لم يكن لدى هـذا الفخذ من ثروة سواها يتعهد تنميتها . هذا الفخذ هو آل قاسم ، وكـانت زعامتهم عام ١٩٣٦ في يد الحاج محمد سعيد بزي ...

عام ١٩٣٦ ، كان آل بيضون قد سلموا بأنهم العائلة الثانية في البلدة ، وكان هذا كسبا لهم . وكان وجوههم ، خاصة ، ابناء محمد الحـاج مرعي بيضون ، الذي كان قد امسى شيخا كبيـــرا ، يتعاطون اصنافـا مختلفـة من التجارة . ولم تكن العلاقات بينهم وبين آل بزي ، في حدتها ، عـلى الدرجة التي نعرفها اليوم ، بـل كـان وجوه العائلتين يلتقون ويتزاورون . فالتنافس على النيابة ، في حينها،غير ذي موضوع ، لا هو ولا الولاء لطرفين متناحرين من الاقطاع السياسي . كذلك لا خلاف ، بين الوجوه ، في شأن السلطة المنتدبة ، فمحمد سعيد بزي وامين بيضون ، سائران في ركابها ، دون كثير من عذاب الضمير . لكن هناك تفاوتا في الاهمية ومتانة السلطـة بين محمد سعيد من جهة وبين امين واخوته من جهة ثانية ، كل على راس عائلته . فمحمد سعيد بزي هو رئيس البلدية وهو الشخص الاعظم نفوذا في البلدة كلها .. وجمهور الاهالي يكبت غيظه من آل قاسم ويتحمل سماجتهم منذ سفر برلك ، بينما هم يتمادون في مظالمهم . هذه المظالم كانوا يرتكزون في اتيانها على التحاقهم بالاقطاع وبالسلطة ، ايـا كانت . فهم اثنـاء الحرب الاولى ، يسلمون الفارين من الخدمة في الجيش التركي . وهم يتوسطون ، في كل قضية مع الدرك ويقاسمونهم الرشوة . وهم يجبرون الاهالي عـلى الاستمرار في دفع الاعشار لهم بعد ان الغاها الانتداب . وأحدهم ــ شقيق محمد سعيد ــ يشارك بعض اهالي مارون ، من الذين دفعهم ضيق الحـال الى احتراف اللصوصية ، في غنائمهم لقاء حمايتهم . وهم يجبرون الاب على تزويج ابنته ممن يشاؤون ، اذا تمنع .. الخ .. كل هذا ، حقق في البلدة ، نوعا من الاجماع المكبوت على كرههم ــ وهم حينذاك حفنة لا يتجاوز عددهم العشرات ــ ما لبث أن انكشف وانفجر حينما بانت ، في مناسبة طارئة ، آثار ولائهم للانتداب الذي اصبح فجاة ، واصبحوا معه ، عدو البلدة الاول .

محمد سعيد كان اذآ رئيس البلدية .. هذه الاخيرة كانت ، كالعادة ، برلمان العائلات في البلدة . فهي مؤلفة من سبعة اعضاء بينهم واحد عن آل بيضون وآخر عن آل شرارة وثالث عن آل سعد ورابع عن آل فرج وخامس

عن آل شامي . أما آل بزي فيمثلهم عضوان أحدهما الرئيس . وكانت البلدية كحالها في معظم القرى ، هيئة البلدة السياسية ، هي صلتها بالسلطة المحلية وهي وجهها أمام السلطة المنتدبة . هذا قبل ان يفقـــدها طموح العائلتين الكبيرتين الى النيابة ، معظم مكانتها السياسية . اما السلطة المحلية ، فكانت ممثلة بمخفر بسيط يرئسه عريف في الدرك ويتبعه سجن . ذلك ان بنت جبيل،لم تكن ــ كما هو معروف ــ مركز قائمقامية ،بل كانت تابعة لقائمقامية صور التي كان على راسهافي ذلك الحين شخص يدعى جان عزيز ــ هو غير النائب الحالي ــ.وأما السلطة المنتدبة فكانت ممثلة ، في الجنوب ، بضابط كبيـــر في الجيش الفرنسي ، هـــو المستشار بشكوف (ابن مكسيم غوركي غير الشرعي) . هذا المستشار كان حاكم الجنوب المطلق وكان رضاه ، في مــا يبدو ، يفوق اهمية رضا الزعماء الاقطاعيين . فقد حالف الصفار منهم ، اذ وجدهم اسهل استزلاما (آل عسيران وآل الفضل) ونقم على يوسف الزين، وكان الوجه الابرز ، فانفض من حول هذا الاخير كثير من الناس ــ بينهم آل بزي ــ خوفا من المستشار او تزلفا له . اما آل الاسعد فكان نجمهم قد افل منذ وفاة كامل الكبير عام ١٩٢٣ ، وكان عبد اللطيف كبيرهم ، لاجئـــا مفقرا في قرية هونين ، بينما ابنه احمد يجهد في البروز وفي التقرب مـــن الفرنسيين . ولم يكن حضرة المستشار ليبخل بالزيارة على رعايا بنت جبيل . فكان يقدم اليها بين الحين والحين . فتخرج القرى التي يمر بها لاستقباله بالبيارق وتنصب له اقواس النصر . وحين يصل الى بنت جبيل يـــدب الشجار بين العائلات المتنافسة في تكريمه فيحمل هو والسيدة عقيلته على اريكتين من مدخل البلدة الى دار البلدية ، محفوفا بالطبل والزمر . وقـــد يتكرم احيانا فيزور الوجيهين محمد سعيد بزي ومحمـــد الحاج مرعي بيضون .

لكن الحال لم تدم على هذا المنوال . فقد كان هذا التذلل امــــام المستشار ، يمض بعض النفوس في بنت جبيل . فاحدى العـائلات ، آل شرارة ، بعد أن كانت منذ زمن بعيد ، عائلة مشايخ ، تفرض على عدد مـــن افرادها جوا ثقافيا معينا يتنازعه الدين واللغة والادب ، اطلعت نفرا مـــن « المتنورين » الذين تفلتوا شيئا ما ، من القيد الديني ، لكنهم احتفظوا بذوق ثقافي معين جعلهم اقرب الناس في البـــلدة الى تجاوز جوها الضيـــق والاهتمام بالقضايا العامة . ولم يقفز هؤلاء الى معاداة الانتداب مرة واحدة، بل كان ضيقهم يتناول في مرتبته الاولى بعض القيود التقليدية من دينيـــة واجتماعية وهي التي كان المشايخ والوجهاء قيمين عليها في كل قرية . وكان احتساء الخمرة في الخلوات ، مثلا ، من مظاهر هذا التفلت ، وكذلك هجاء المشايخ والوجهاء شعرا .. ثم كان لهؤلاء المتنورين ــ وبينهم شبان ليسوا

من آل شرارة ، أتيح لهم بشكل او بآخر ان يتلقوا بعض العلم ــ ان وجدوا مكانهم الطبيعي ــ رغم عدائهم للمشايخ ــ في بيئة المشايخ الجنوبيين ، الذين كانوا طليعة المثقفين في جبل عامل . فكانوا يتصلون بأندادهم ، في قرى اخرى من الجنوب ويأنسون جميعا الى الجو الادبي الذي توفره صداقة المشايخ. الا ان هذا الجو لم يكن ادبيا فحسب، اذ ان بعض المشايخ ــ وبينهم نفر من اصحاب الماضي الوطني تحت الحكم العثماني ــ كانوا مطلعين على مجريات الامور ، في سوريا وفلسطين خاصة بفعل التواصل الطبيعي بين هذين البلدين ، خاصة الاخير منهما ، وبين البيئة العاملية. والحال ان ثورة ١٩٣٦ الفلسطينية التي قادتها « الهيئة العربية العليا » برئاسة مفتي القدس ، كانت آنذاك في طور التحضير وانفجرت بعد ايام قليلة جدا من انتفاضة بنت جبيل (نيسان ١٩٣٦) . كذلك كانت « الكتلة الوطنية » في سوريا ، وعلى راسها هاشم الاتاسي وفخري البارودي ، قد رفعت في وجه الانتداب، قبل انتشار ميثولوجيا انطون سعادة، شعار وحدة سوريا العربية. وقد تجاوب المتنورون والمشايخ ، في جبل عامل ، مع هذا الشعار واعتبروه ركيزة لوقفتهم في وجه الانتداب . وكان رؤوس الدعاة الجنوبيين في النبطية ، وهم المشايخ احمد رضا وسليمان ظاهر وعارف الزين وعلي الزين . ولا ندري ان كان لهؤلاء صلة مباشرة بالساسة السوريين في ذلك الحين ، لكن ما نعلمه هو ان شبيبة بنت جبيل كانوا على تعاون مع مشايخ النبطية فحسب ، من قادة الحركة ، ولم يقيموا اية علاقة مع رجال « الكتلة الوطنية » . ولقد شكل اهل الادب العامليون تجمعا كان من اعضائه البارزين ايضا واحد من هؤلاء الشبيبة هو موسى الزين شرارة . هذا التجمع هو « عصبة الادب العاملي » التي ظهرت في اوائل الثلاثينات وكان بين اعضائها هاشم الامين وحسين مروة وعلي الزين وعبد الحسين العبد الله وسواهم ، ومعظمهم كما نرى ينتمون ، في الاصل ، الى عائلات دينية . اعضاء العصبة هؤلاء كانوا على اتصال بالمشايخ ، كما سبق ، وانتجوا ، بين ابرز ما انتجوا ، شعرا ساخرا من كل ما هو بال ومتسلط ، وهم الخارجون من بيئة بالية متسلطة ، فلم يسلم من السنتهم المشايخ ولا الزعماء ... ولا الانتداب . في بنت جبيل اخذ موسى شرارة ومعه الشباب الآخرون (ابرزهم علي بزي وحسين شرارة والطبيب انيس ايراني) يقودون حملة بين اهالي البلدة ضد الانتداب ويروجون لشعار الوحدة السورية ، ويتصرفون شخصيا على نحو متميز جعل الاطراف المحافظة ، دينيا وسياسيا ، في البلدة « تتهمهم » « بالتحرر » . وكان طبيعيا ــ وهنا بيت القصيد ــ ان يتصدوا أول الامر لزيارة بشكوف التقليدية . فأخذوا يحضون الاهالي ، باسم الكرامة الوطنية، على ان يمتنعوا عن الترحيب به اذا جاء . ولم يكن الشبيبة هؤلاء نكرات في

البلدة ، لذا لم تبق دعوتهم دون صدى . فموسى الزين شرارة ممثل عائلتـه في البلدة ، وانيس ايراني طبيب البلدة،وعلي بزي سليل بيت عريق، وان تكن زعامة العائلة في غير يده ، الخ .. وكان ان قدم بشكوف ، في اواخر ١٩٣٠ ، فلقي فتورا في استقباله لم يعتد على مثله . وامتنع موسى الزين شرارة عن المشاركة في الاستقبال ، وهي مشاركة مفروضة على اعضـاء البلدية قبل الآخرين . فارسل بشكوف الدرك في طلبه وابلغه نقمته عـلى نشاط « الشبيبة » ـ والتسمية لبشكوف نفسه : (La jeunesse) اذا صح ظننا) . ثم عـاد المستشار الـى صيدا وقـد اشتـد حـذره مـن هؤلاء واستقرت نيته ، على ضربهم حالما تبدو منهم بادرة تمرد . وكان ان التقت نقمة المستشار مع نقمة « الوجهاء » الموالين له ، من آل قاسم خاصة ومن آل بيضون ، وكانوا يخافون على نفوذهم من حركة الشبيبة . فهؤلاء كانوا قد بداوا يتعاطون التوسط مع السلطة ، متحدين الوجهاء في قاعدة وجاهتهم ، متجهين هم انفسهم كما سنرى نحو « الوجاهة » . وبدا أن المعركة قادمـة متى سنحت الفرصة .

***

هذه الفرصة ما لبثت ان سنحت . كانت « الريجي » ـ طويلة العمر ـ قد اخذت من الحكومة اللبنانية ، عام ١٩٣٥ ، امتيازا لحصر التبغ والتنباك مدة ١٥ عاما . قبل ذلك كانت زراعة التبغ وصناعته وتجارته حرة لا قيـد عليها . وكانت مصانع السيجارة منتشرة في أرجاء عديدة من لبنان ، خاصة في منطقتي البترون وجبل عامل ، تشتري من المزارعين محاصيلهم بأثمان بخسة . وحينما حصلت الشركة الفرنسية على الامتياز ، بدا ان على اصحاب المصانع ان يذهبوا هم ومصانعهم الى حيث القت رحالها .. كمـا خشي المزارعون من ناحيتهم ان يؤول انتهاء المضاربة بين المصانـع الى تخفيض الاسعار ، التي كانت في الاصل زرية جدا . هذا ولم يكن الترخيص بالزراعة، في حينها منظما كما هو اليوم ، ولا كان للحصول عـلى الرخصة اغراؤه الحالي . بل عمدت الريجي، في اول امرها،الى تسجيل كل مساحة مزروعة، على انها مرخص بها لصاحبها . المهم ان قيام الريجي لم يعجب البطـرك عريضة ـ وهو من بشري ـ لانه وجد فيه تهديدا لمصالح المستفيدين مـن زراعة التبغ في منطقة الشمال (لا ندري على وجه الثقة ، ان كانت الكنيسة، في ذلك الحين ، بين هؤلاء المستفيدين) . وانتهى الامر بالريجي الى شراء مصانع التبغ جميعا ومنحمن شاؤوا من اصحابها اسهمافي الشركة الجديدة. اما المزارعون فلم ينلهم شيء يذكر من شفاعة البطرك .

اذ ذاك كانت بلدة بنت جبيل تنتج من التبغ ما معدله السنوي اربعون

ألف كيلو . وكان قسم من محصولها يباع الى تجار من البلدة ، يصرفونه في فلسطين ، وقسم آخر يتسلمه مصنع محلي يملكه شخص يدعى الياس صوايا، اشترت الريجي منه هذا المصنع وجعلته مساهما فيهـا . وحين تسلمت الريجي محصول عامها الاول تراوح سعر الكيلو بين الليرة اللبنانية الواحدة ونصف الليرة ! ولا نستطيع القول ان ذلك قد اثار نقمة ما بين صفوف المزارعين ، لان السعر الذي كانوا ينالونه من التجار واصحاب المصانع لم يكن ارفع من هذا المستوى ،على الاطلاق . لكن وضع الاحتكار الجديد، فتح المجال فورا امام المطالبة بزيادة الاسعار ، اذ لم تعد هذه حصيلة « اتفاق حر » ـ بمعنى العبارة الراسمالي ـ بين البائع والمشتري . اما الذين ابصروا هذا المجال ، اول الامر ، فلم يكونوا المزارعين ، بل شبيبة بنت جبيل . والحق ان هؤلاء كانوا يبصرون من المشكلة ، على وجه التخصيص ، جانبها الوطني ، وهو يتلخص في كون الريجي شركة فرنسية . ولم يجدوا امامهم ، في اول الامر الا مساندة البطرك ، فساندوه ، بالعرائض والدعاية بين الاهالي . وحينما بدا ان الريجي باقية اخذوا يطالبون بزيادة الاسعار . ولعل الريجي كانت حريصة ، في حينها ، لحداثة سنها ، على تجنب المتاعب ، فدبر يوسف الزين ـ رغم عداوة بشكوف له ! ـ ، وكان من كبار الملاكين ومتعاطي زراعة التبغ في منطقة النبطية ، اجتماعا ضم الياس صوايا من جهة وعلي بزي وموسى شرارة من جهة ثانية وعرض فيه الاول توزيع عشرين الف ليرة على مزارعي بنت جبيل ، وذلك بمضاعفة سعر الكيلو ، على ان يترك هؤلاء الريجي وشانها في القرى المجاورة . الا ان الشابين رفضا هذه الرشوة ، واستأنفا مع رفاقهما الحملة على الريجي .

وكان بين آل بيضون ، في حينها ، شاب « فلتة » هو علي الحاج حسين بيضون ادعى الشعر هو الآخر (ما قراناه من شعره لا يدل على معرفة بقواعد النظم ولا بقواعد اللغة) وغدا صديقا للشبيبة ، وهو أيسرهم حالا ، اذ كان قد امضى سنوات في المهجر الافريقي . ولقد فتح علي داره للقاءات الشبيبة وشارك في حملتهم على الريجي ، وكانت في منزله مساء الحادي والثلاثين من آذار عام ١٩٣٦ عريضة عليها تواقيع ، معدة للارسال الى المراجع ، يشكو موقعوها من اوضاع المزارعين ويعرضون مطالبهم .

الناس في ذلك المساء مجتمعون في الجامع . فاليوم التالي هو العاشر من محرم ، ذكرى عاشوراء . فجاة يصل من ينبئهم بان الدرك داهموا منزل علي بيضون ، فصادروا العريضة وأوقفوا الرجل . يهب الجميع ويصلون الى المخفر ، وهو يبعد عن الجامع مسافة كيلو متر ونصف الكيلو متر ، في تظاهرة كبيرة . يسيطرون على المخفر بسرعة ، وليس فيه سوى بضعة انفار،

ويطلقون ، بالقوة ، سراح علي بيضون ، فيعيدونه الى بيته ثم يعودون الى بيوتهم . يتصل الدرك ــ طبعا ــ بصور طالبين النجدة . يتم اجتماع بين الامير رياض ارسلان ، مأمور الريجي في البلدة ــ هو اليوم مدير مجلس النواب ــ وحبيب الحاج عبد بزي(١) . يملي الاخير على الاول قائمة فيها اسماء ٣٣ شخصا ، برسم التوقيف ، بعضهم شارك فعلا ، في الحملة ، وبعضهم لا في العير ولا في النفير . تصل النجدة ــ حوالي مائة دركي ،على راسهم قائمقام صور جان عزيز وضابط لبناني يدعى جورج النجار وضابط فرنسي ــ وتسلم قائمة المغضوب عليهم من سمو الامير . يطوق الدرك منازل هؤلاء ، قبيل الفجر ، ويعتقلونهم . يشاهد المعتقلون ، وهم مسوقون الى السجن ، الحاج محمد سعيد بزي ، واقفا ، على درج المخفر ، ملتفا بعباءته . يستفيق اهالي البلدة صباح اول نيسان ، وبينهم ثلاثة وثلاثون معتقلا . يهبون هبة واحدة ، رجالا ونساء واطفالا ، فيهاجمون المخفر ، غير عابئين بقوة الدرك الكبيرة ، ويحدثون بمعاولهم ثغرة في جدار السجن ويطلقون احد الموقوفين اما الآخرون فيرفضون الخروج . يطلق الدرك النار . يسقط الشهيد الاول : مصطفى العشي ، وكان عريسا في مقتبل شبابه . ابن الحاج محمد سعيد بزي بين الدرك القادمين . تسري بين الاهالي شائعة تقول انه هو الذي اطلق النار على الشهيد . يجن جنون الاهالي بينما تصل من عيناتا ومارون ، خاصة ، وفود تشترك في التظاهر . يستمر التظاهر . يطلق الدرك النار ، من جديد فيسقط شهيدان آخران : عقيل الدعبول ومحمد الجمال : كلاهما من عيناتا . خلال ذلك يرسل محمد سعيد بزي صواني عليها طعام الفداء الى الدرك ، فيتلقاها آل جمعة في حيهم ،ليحطموها ويتلفوا ما عليها . في المساء يرسل الموقوفون الى صيدا ، وبينهم موسى شرارة وعلي بزي وعقيل شامي وعلي بيضون والحاج امين شرارة والحاج محمد علي بزي وعبد مصطفى ونجيب عبد الله وسليمان مكي والحاج حبيب داغر وابراهيم شامي وآخرون .

جرى للشهداء الثلاثة ، في اليوم التالي ، مأتم عز نظيره ، حضره وجوه الاقطاع العاملي جميعا من عسيران الى الزين الى الفضل الى الاسعد . واعلن الجنوب الاضراب من اقصاه الى اقصاه ، وظلت الصحف المناوئة للانتداب تتصدى للحدث اياما عديدة . اما المعتقلون ، فزجوا في سجن الرمل وقدموا الى محكمة مختلطة ، فرنسية ــ لبنانية ، حكمت عليهم بالسجن شهرا واحدا . وقد تبرع اكثر من ثلاثين محام بينهم واحد فرنسي للدفاع.

١ ــ هذا المخبر الفذ ولد فانجب . فابنه اليوم شيخ مشايخ المخبرين في بنت جبيل ، وهو اصلا مراسل في الريجي لكنه يقبض معاشه وهو قابع في بيته . وابنه الاخر جمع ثروة من اشرافه على المستودع الذي يوزع التبغ على باعة السجاير في البلدة والمنطقة .

عنهم . ولم تفت الاقطاع السياسي فرصة الاستفادة من هذا الجو ، فنظم مهرجانان احدهما في الطيبة والاخر في النبطية . ووقف عادل عسيران يخطب في النبطية متوعدا : « هؤلاء الاربعون مليـون فرنسي ، سـوف نبتلعهم »(١) ولم تقف السلطة مكتوفة الايدي امام هذا التحرك فبدات الاعتقالات تتجاوز نطاق بنت جبيل وجرى توقيف عادل عسيران والفرد ابو سمرا وسليم ابو حمرة (هذان الاخيران من مرجعيون) . لكن صمود بنت جبيل هو الذي حسم الموقف واكره السلطة على اطلاق سراح المعتقلين بعد مضي اسبوعين تقريبا على توقيفهم .

في بنت جبيل ، ظل الاضراب مستمرا ــ ومعه التظاهر ــ الى ان عاد المعتقلون . واجمعت العائلات في البلدة على عزل محمد سعيد بزي واتباعه واضطره ضغط الاهالي وصفير الاولاد الى مغادرة البلدة ، فلجأ الى عين ابل، وهي قرية مسيحية مجاورة كانت معروفة بولائها للفرنسيين منـذ تولي جيشهم حمايتها في وجه اهالي بنت جبيل بعد ان احرقها هؤلاء وقاموا فيها بمذبحة طائفية شنيعة عام ١٩٢٠ ... آل بيضون وحدهم لم يكن وجهاؤهم متحمسين للمقاومة ، بسبب صداقتهم لبشكوف والسلطة المحلية ، لكـن سوادهم كان خجلا من هذا الموقف . ولم يلبثوا على اي حال ، ان اضحوا في طليعة الحركة بعد يومين فقط من بدئها . فقد عاد من العراق ، حيث كان في رحلة تجارية ، ابن محمد الحاج مرعي بيضون الاصفر عبد اللطيف . ولم يكن هذا الشاب من « الشبيبة » ؛ لكن هؤلاء ، وخاصة موسى شرارة ، كانوا يعملون على تقريبه منهم ، اذ وجدوه اكثر « انفتاحا » من اخوته ، خاصـة وانه ، هو الاخر ، مغترب سابق (كان في الارجنتين) . وتولى الرجل فـور وصوله (هو زوج اخت موسى شرارة) تنظيم تظاهرات الرجال اليومية ، وتبعه آل بيضون ، فاكتمل بذلك اجماع البلدة على المقاومة ، وبرز من الظل قادة جدد في غياب القادة المعتقلين . لكن هؤلاء ما لبثوا ان اعتقلوا ، بدورهم ، قبيل اطلاق رفاقهم ، وظل الاعتقال والاحتجاج متلازمين في البلدة ، والحركة التجارية ، خاصة سوق الخميس تكاد تكون مشلولة فيها ، طيلة احد عشر شهرا .

كانت التظاهرات في البلدة حدثا يوميا خلال اسابيع الحركة الاولى .

---

١ ــ ما لبث الفرنسيون الموجودون في لبنان وعددهم اقل من هذا بكثير ، ان «ابتلعوه». فبعد الانتفاضة بسنوات قليلة ، وكانت القوات الحليفة قد دخلت لبنان ، اقتيد عدد من وجوه بنت جبيل ، مجددا ، الى السجن في صور بتهم تحريض الناس على التمنع عن دفع الاعشار التي كان الانتداب قد عاد الى فرضها من جديد . وهناك فوجئوا بان غاية الفرنسيين من توقيفهم هي تدبير لقاء بينهم وبين عادل عسيران ، واكراههم على المسير في ركابه !..

وكان الطلقاء من الشبان ، ينوبون في كل تظاهرة ، عن الذين اعتقلوا خلال تظاهرة سابقة . لكن الرجال لم يكونوا المتظاهرين الوحيدين ، بل ان النساء نظمن تظاهرات بالفة الحماسة ايضا وخرجن ، للمرة الاولى ، على دورهن في الزغردة تكريما للوجهاء والاقطاعيين . وكانت على راسهن امراة فقيرة حسنة الصوت تدعى « العذراء » عبرت عن تحمسها للمعتقلين وولائها للوحدة السورية بأهازيج جميلة فيها اشارات بالفة الطرافة الى ثمار الجبل السوري من تفاح ورمان :

بدنا حلو وبدنا مر   وبدنا تفاح بلودان (١)
وبدنا نكسر باب الحبس   وبدنا نطلع بو عدنان (٢)
بدنا حلو وبدنا مر   وبدنا حامض لفاني (٣)
وبدنا نكسر باب الحبس   وبدنا نطلع بو هاني (٤)

والاطفال ايضا تظاهروا وحظيت تظاهراتهم بتأييد الكبار . وكان حسين طرفة مكي ، وهو من اصحاب الماشية يجمعهم ، كل صباح ، فيوزع عليهم الحليب ثم يقودهم وهم يهزجون مندين بالاعتقال والخيانة والانتداب!

وحين عادت الدفعة الاولى من المعتقلين الى البلدة ، اخذ ادعياء الوطنية، في الجنوب كله يتنافسون على تكريمهم وتسابق رؤوس الاقطاع على اقامة الولائم احتفاء بهم . وكان الشبان في الواقع « موضوعا قابلا » ، فجالوا وصالوا بين حواضر الجنوب ، من وليمة الى وليمة . ذلك ان علاقتهم بالاقطاع ، لم تكن في يوم من الايام ، مقطوعة تماما . بل كانوا يكتفون بمقاطعة الطرف العميل منه ، ويحتجون على بعض مظاهر الظلم الصارخة التي كان الاهالي يذوقونها على يده . لكن موجة العطف الشعبية التي اثاروها ، في جبل عامل ، ظلت موضوعا لقلق السلطة المنتدبة . فكان منها ان لجأت في سبيل عزلهم الى لعبة بارعة . اخذت ترسل وجوه الدين والدنيا الى بنت جبيل ، توسطهم لدى قادة الحركة فيها كي يرضى هؤلاء بعودة « الخائن » محمد سعيد بزي الى داره . وكانت الفاية من هذا الاسلوب حمل اهالي بنت جبيل ، على رد هؤلاء الوجوه خائبين ، فيؤدي ذلك الى اثارة النقمة على

---

١ ـ المصيف السوري .   ٢ ـ موسى شرارة .

٣ ـ رمان .

٤ ـ علي بزي . تروي العذراء انها قصدت محمد سعيد بزي ، ذات يوم ، بعد عودته الى رئاسة البلدية تطلب منه خدمة ، فوجدته جالسا في منزله يرتدي « جلابية » بيضاء ، وحينما وقف على طلبها ، قفز من مجلسه ، وكان رجلا مسنا ، واخذ يتمايل بقامته الفارعة في الغرفة وهو يغني :

بدنا حلو وبدنا مر   وبدنا حامض لفاني .. الخ ..

ثم رفض ان يقضي حاجتها .

البلدة وعزلها . وقد وصلت موجة الوساطة الى ذروتها حينما اعلن السيد عبد الحسين شرف الدين ـ وهو آنذاك المرجع الشيعي الاعلى في جبل عامل ـ عن عزمه على اعادة محمد سعيد الى بنت جبيل . ثارت ثائرة الاهالي ، على هذا المسعى ، وقرروا الحؤول دون نجاحه . اما « الشبيبة » فقد تخوفوا من عاقبة الامر وبداوا يجرون اتصالات في البلدة ، غايتها جمع وجوهها والذهاب بهم جميعا الى عين ابل لاستباق زيارة السيد واعادة « الخائن » الى منزله . غير ان السلطة المنتدبة التي كانت في اغلب الظن ، وراء السيد ومسعاه ، طوقت مسعى الشبيبة ، الذي اخذتهم فجاة حمى التسامح ، فارسلت الى ثلاثة منهم (علي بزي وموسى شرارة وعلي بيضون) ضابطاً يدعى فؤاد الصباغ ، يذكرهم بأن عليهم حكما بالسجن ثمانية أيام ، ما زال ينتظر التنفيذ ... وعبثا حاول الثلاثة استمهال الضابط ، الى ان ينفذوا مسعاهم ، فقد اصر على اقتيادهم الى السجن دون تأخير ، فكان منهم قبل مغادرتهم البلدة الى سجن تبنين ، أن داروا على البيوت في البلدة ، منددين بزيارة السيد شارحين الغاية منها . وفي السجن زارهم يوسف الزين وكاظم الخليل واحمد الاسعد وابلغوهم انهم حاولوا دون جدوى ثني السيد عن عزمه .. كان السيد قد وزع « مناشير » يعلن فيها تصميمه على المسعى واخذ اعوانه يوعزون الى الناس بالتهيؤ لاستقباله ومواكبته . لكن الجبيليين وظفوا نفوذهم كله لنشر دعوة مضادة تقضي بمقاطعة الزيارة . اما موقف السيد فقد لخصه في كلمة اثرت عنه يومها : « لنؤد للرجل حقه » (يعني الحاج محمد سعيد ، وهو ، في رايه ، شخص حري بالاحترام) . وقد قال موسى شرارة ، في ذلك ، ابياتا ارسلها الى السيد يوسف صالح ، من انصار « السيد » في تبنين ، منها :

لو كنت شهما لم تؤد حقه — لكن هناك ـ اخي ـ اوامر جان(1)
اسفا على الزعماء تصبح آلة — صما تدار براحة الشيطان.

أخيرا جاء السيد ، لكن الدعوة الى مقاطعته كانت قد لاقت صدى عظيم الاتساع . وبينما هو عائد بمحمد سعيد ، ومعهما نفر من الانصار ، لقيه جمع من اهالي بنت جبيل ، عند مدخل البلدة الشمالي ، على طريق عين ابل ، فأهانوه وضربوه وانتزعوا عمامته ، ثم عادوا الى البلدة وهم يهزجون :

يا سيد وينا لفتك — اسافا طارت بالهوا
نحنا كرمنا لحيتك — جيت ، انتي والخاين سوا

لكن الاستقبال الذي جاء لائقا بمقام السيد ، لم يمنع « الخائن » من العودة الى بنت جبيل . وما لبث صفير الاطفال أن تدرج في الخفوت ، مع خفوت الحركة ، في البلدة ، واذا بالحاج مسترجع ، شيئا فشيئا ، وجاهته

---

١ ـ القائمقام .

السالفة ويبقى في مقامه رئيسا للبلدية حتى وفاته . بل ان موته لم يزح آل قاسم عن مقام الزعامة، فانتخب اخوه عبد الحسين لرئاسة البلدية، اذ لم يكن بين أولاده من يؤتمن عليها، وبقي فيها حتى مات هو الاخر عام ١٩٤٧ (١) . ثم تسلمها، في أوائل الخمسينات، ابن محمد سعيد، وكان قد اضحى وقتها في سن مناسبة، مصداقا لحداء العامليين المشهور :

ريتك خليفة بيك يا فرخ عا ارميه

لكن انتفاضة الـ ٣٦ لم تمض دون اثر على وضع « الوجاهات » في البلدة . فقد تكرست من يومها زعامة عبد اللطيف بيضون على آله ومن يليهم، خاصة بعد أن احتضنه آل الاسعد، زمنا، ونجمهم آخذ في الصعود، وتوثقت صلات علي بزي، برياض الصلح، بسبب عدائه للانتداب واخذ آل موسى ــ عائلته ــ ومعهم آل شرارة ــ خؤولته ــ يرفعونه شيئا فشيئا الى قمة الدوحة البزية . لكن العامل الحاسم، في رد آل قاسم، الى حجمهم الطبيعي، كان طموح العائلتين الكبيرتين، في البلدة، الى النيابة، وقد بدأ يتكشف منذ عام ١٩٤٧ . هذا الطموح اعاد للثقل العددي، في العائلة، وزنه، واقصى آل قاسم، وهم قلة كما ذكرنا، الى المؤخرة، حيث ما يزالون الى اليوم يحلمون باستعادة « المجد » التليد الذي نوهنا ببعض مجاليه . وفي عام ١٩٥١ كان علي بزي، تدعمه عائلته الكبيرة ورياض الصلح، اول نائب تطلعه بنت جبيل، اذ انتخب على اللائحة الاسعدية وقد ضمت آنذاك اربعة عشر « ربيعا » . مع هذا الطموح أيضا، كسب الخلاف العائلي في البلدة حدة جديدة، لا يبدو انه عرفها من قبل، ولم يفتر الا مرتين عام ١٩٥٣ حين رشح أحمد الاسعد نفسه عن بنت جبيل، في اول انتخابات جرت على أساس الدائرة الفردية، فلم تجد العائلتان بدا من الوقوف معا في وجهه، وعام ١٩٦٠ حين كان علي بزي مرشحا عن دائرة مرجعيون، ضد كامل الاسعد، فلم ير آل بزي بأسا من تأييد عبد اللطيف بيضون الذي كان يخوض المعركة في بنت جبيل والى جانبه حسن الامين ضد أحمد الاسعد وسعيد فواز .

***

كان « شبيبة » سنة ١٩٣٦، قد « خسروا انفسهم » ــ كما يقول الانجيل منذ اخذوا يرتقون سلم السراي في بنت جبيل لانتزاع « الحل والربط » من يد آل قاسم . من يومها بدا انه ليس لديهم جديد، وانهم اذا كانوا يسببون بعض القلق لبشكوف، فهم، رغم القصائد غير العصماء، لا يخيفون الاقطاع .

١ ــ مات بالنوبة القلبية، في أحد مقاهي صيدا، وجيوبه محشوة بالمال الذي كان قد قبضه في ذلك اليوم، من أحد عملاء « الوكالة اليهودية » ثمنا للاراضي التي باعها اقرباؤه في قدس والمالكية .

والحق انه اذا كانت هنالك لفظة تطلق على عمل الشبيبة هؤلاء فهي « الالتباس » (Ambiguité) . موقف الشبيبة كان موقفا ملتبسا . هم من ناحية معادون للاقطاع ، دينيا كان او دنيويا ، يهجون فيقذعون في هجائه، وهم من ناحية اخرى اصدقاء المشايخ «الوطنيين» وحلفاء الاقطاع «الوطني». حتى انهم عشية الحركة ، عام ١٩٣٥ ، بعد وفاة النائب فضل الفضل في النبطية — وكان من أعوان الفرنسيين — عملوا بأيديهم وارجلهم على انجاح عبد اللطيف الاسعد الذي انتشله رياض الصلح من عزلته ودعاه الى ترشيح نفسه ضد بهيج الفضل ، فأسقطه بشكوف . وقد بقيت من تلك الانتخابات الاهزوجة المعروفة :

بشكوف خبر دولتك زعيمنا عبد اللطيف
باريس مربط خيلنا ورصاصنا يلحق جنيف

هذا واسلوب عملهم يقوم على تأثير الكلمة والثقة الشخصية ، في مجلس خاص أو عام ، مما يجعله غير بعيد عن اسلوب المشايخ والاقطاعيين . وهم لا يرون مستويات وسيطة ، في مقتضيات الفهم وادوات التنفيذ ، بين المسائل الموضعية التي يعرضون لها والاهداف العامة التي يتبنونها (الاستقلال ، معاداة الاقطاع ، الوحدة السورية) بحيث لا تنعكس هذه على تلك الا من زاوية مبدئية لا تغني استقامتها ولا تقوي فعاليتها . وهم خاصة لا يتنبهون الى ان السبب الوحيد في عداء طرف من الاقطاع للانتداب هو كون الانتداب يدعم الطرف الخصم من الاقطاع نفسه ، وان محالفة الطرف « غير الخائن » يحوم عليها دائما شبح الخيانة الممكنة ولا تغني ، اذا جازت في وقت ما ، عن التوجه الى فئة اجتماعية اخرى ، تبذل الجهد كله لاجتذابها من براثن الاقطاع باساليب غير اساليبه . ولا ريب في ان هذا العرض الذي قدمناه لقضية الانتفاضة ، يبقى قاصرا عن توكيد الامكان او نفيه في هذا المجال ، لان مثل ذلك يتطلب تعيينا دقيقا لفعالية عدد من العوامل اهمها العامل العائلي في بنت جبيل نفسها وعامل القيادة القادرة او غير القادرة على نشر الحركة بين مزارعي التبغ ، في انحاء اخرى من الجنوب ، لو انها استطاعت مد جذورها في بنت جبيل وعامل الافق الذي كان يستطاع طرحه، على انه افق المصلحة المشتركة ، امام هؤلاء المزارعين والعقبات التي كانت تقف في وجه هذا الطرح او تحول دون تبنيه .

الا ان غياب هذا التعيين ، وهو يقتضي جهدا آخر ، لا يمنع من استخلاص عبرة واضحة ، تظهر مما آل اليه حال الذين كانوا يروحون ويغدون الى السجن عام ١٩٣٦ ، وهي حال دفعهم اليها تخلفهم السياسي، قبل حدود الانتفاضة ، من حيث يشعرون او لا يشعرون .

اما علي بزي فقد لبث ينتقل من طرف في الاقطاع الى طرف ، بعد ان

اضحى شانه شان محمد سعيد ، زعيم عائلة يحتقر سوادها ، حتى اتت صداقته لرياض الصلح ثمارها ، فوجد فيه الصديق الاخر فؤاد شهاب ضالة منشودة وكرسه وجها من وجوه اقطاع جديد،أعدته الشهابية للمناطق اللبنانية المتخلفة ، لا يعتبر نفسه طرفا اصيلا في الحكم او التمثيل ، بل يدين بهما لادارة الحكم المركزية ويظل على استعداد لتنفيذ ما تطلبه منه ، بمقتضى رؤيتها اللبنانية العامة ، دون أن يفرض عليها لقاء ذلك ، كما يفعل الاقطاع التقليدي ، منافع خاصة لمنطقة تعرقل تحقيق الرؤية العامة . وقد اغناه ذلك عن التمسح في البيت الاسعدي الذي لم يكن يجني منه ما جناه ، شخصيا ، على يد الفئة الصاعدة . لكنه كل ومل ، وهو يتقلب بين وزارة لا تدوم ونيابة تكون احيانا مرهونة بالغيب . وكان يقول لاخصائه انه لا يرى ما يستبقيه في صخب السياسة وعنفها « الا هذا المعاش » . وحين سقط في الانتخابات ١٩٦٤ استسفر فسفروه . وفي الكويت اغنته الكياسة عن هموم السياسة .. حتى رماه هادم اللذات ومفرق الجماعات في الاردن ، حيث لا يزال يقبض المعاش . ولا ندري ان كان يفعل شيئا اخر .

واما عبد اللطيف بيضون فقد تمسك بالركاب الاسعدي ، فلم يترك آل الاسعد الا حين تركوه وصالحهم كلما صالحوه . وهو يفخر بأنه صمد في وجههم ايام الجفاء وجزاهم عن الصفاء بالوفاء . لكنه يقضي ايامه في دهشة من الحكمة الربانية التي جعلت اهل الجنوب يطوون جوانحهم على هذا الفرام كله بدار الطيبة . وهو ، طبعا ، غاضب اشد الفضب ، على المكتب الثاني وسواه ممن يسقطونه في الانتخابات من آن لآخر ، لكنه رغم ان الكرامة تتكلف شططا ، في رأيه ، من معاشرة العسكر ، يحسد خصمه علي بزي على صداقة هؤلاء الذين مكنوا له في الارض ويتمنى لو ان « البك » يسلس القياد شيئا ما ، لعل رشاش البركة الادارية يبعث الخصب في يابس نفوذه فيزداد تفانيا في خدمة « الشعب » .

اما موسى الزين شرارة فقد سافر عام ١٩٣٨ الى المهجر الافريقي حيث مكث حوالي عشر سنوات . وحين عاد وجد رفيقه علي بزي « وجيها » ملء السمع والبصر ، فرافقه الى « كعبة جبل عامل » (دار الطيبة) . عندما طرق بابها ، وحمل عليها ، شعرا أو نثرا ، عندما تولى ابو هاني عنها ، ثم عاد اليها معلنا لربها ان « الرجوع عن الخطأ فضيلة » . وهو ، بين الصد والقرب ، لم يقطع شعرة معاوية بينه وبين آل بيضون ، فتسنم رئاسة البلدية ، سنين طويلة ، وهو قرف متثاقل ، حتى أقاله منها آل بزي ، اذ لم يجدوا لديه حزما في معاداة خصومهم ، لكنه استمر يحفظ من ١٩٣٦ لفتها ، فيندب ما آلت اليه البلدة ، بعدها ، من خمود ونسيان جعلاه طائرا يفرد في غير سربه . ولقد منت عليه العناية بوجيه « ناشيء » ، رشح نفسه للنيابة

في العام الفائت ، وهو يأمل ـ ان كان في العمر بقية ـ ان يرى على يديه صلاح البلاد وفلاح العباد .

أما علي بيضون فقد مات وحيدا في بيته ، بعد مرض طويل ، وهو ينعى على الدنيا غدرها وندرة الخلان الاوفياء فيها ، حين ساءت حاله وقل ماله ، فانفض من حوله رفاق الامس وتركوه شخصا بلا مستقبل ، يلوك ذكرى الايام الخوالي ..

أما حسين طرفة ، فهو اليوم رجل مسكين رد الى ارذل العمر يجوب المضافات في العشايا ، يروي حكاية الـ ٣٦ كما يروي حكاية تلك الذبابة التي التهمت امام عينيه ، كل ما في الطنجرة من حليب قبل ان يتاح له اكمال فطوره .

هذا عن الرجال . اما العذراء فهي ارملة منذ زمن بعيد ، قذفتها رياح الهجرة الريفية الى برج حمود حيث تقضي بقية ايامها في كنف ابنها الذي يتسمى ، لشهرة امه ، « فايز العذراء » ولا يعرف له اسم عائلة اخر . واما انتفاضة ١٩٣٦ فقد طوى عليها الزمن رويدا ، صدر بنت جبيل كما تطوى صفحة الماء الراكد على زورق غريق (١).

بيروت

---

(١) حين كتب هذا المقال ، كانت وقفة عيترون الاخيرة في وجه الريجي وزبانية السلطة حاضرة في تضاعيف الكلام . ولما لم يتح لهذه الوقفة قيادة تستخرج منها كل ما كان مضمرا في باطنها ، وساد ذيولها « التباس » توسيط الاقطاع والتودد للسلطة ، حق لعيترون ان تقول ما قاله الثور الاسود : « الا اني أكلت يوم اكل الثور الابيض ». واليوم يقف الجنوب على مفترق ويبدو اختيار السبيل السوي رهنا بسياسة لا يعميها التخلف ولا يدفعها حلفاء السوء الى المصير الذي لاقاه رجال ١٩٣٦ .

المثقفون والإشتراكية

ليون تروتسكي   ترجمة : كمال عضاض

لقد كتب ليون تروتسكي هذا النقد بمجلة سانت بتسبرغ في عام ١٩١٠ ، مستعرضا فيه مقالة لماكس ادلر (١) كانت قد نشرت تحت عنوان « المثقفون والاشتراكية » في فيينا بنفس السنة .

وقد ترجم هذا النقد من اللغة الروسية الى الانكليزية من قبل الكاتب البريطاني براين بيرس عام ١٩٥٩ . واستند بيرس في ترجمته هذه الى الجزء العشرين من مجموعة مؤلفات تروتسكي الصادرة في موسكو عام ١٩٢٩ . وقد نشرت هذه الترجمة الانكليزية في مجلة الاممية الرابعة الجزء الاول ، في عددها رقم ٣ ، الصادر في لندن في خريف ١٩٦٤ ، ومنها ترجمت الى العربية .

وتكتسب هذه المقالة اهميتها بالنسبة لنا بسبب النقاش الذي يدور حاليا حول « البرجوازية » و « المثقفين » و « العسكريين » و « الطلاب » الخ .. في المجلات الفكرية الغربية في المرحلة السياسية الحاضرة من حياة الوطن العربي .

— ١ —

منذ حوالي عشر سنوات مضت كان بامكان المدافعين عن « المدرسة الروسية الاجتماعية » (الثوريون الاشتراكيون) ، ان ينجحوا في الانتفاع